زهير المارديني

أتظنون أنكم خير أمة أخرجت للناس

دار الكنوز الأدبية
بيروت - لبنان - ص.ب : ٧٢٢٦

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

نحن ١٥٠ مليون عربي خائف
فمتى يخرج العرب من التيه ؟

مأساة الانسان العربي
انه الضحية التي لا تعرف انها ضحية

بعد ٧٠ سنة من التخطيط
وصلوا الى « حدود آمنة » . . .

بانتظار ان يصلوا الى
« الحدود التاريخية » المزعومة

لئلا يكتب فصل جديد في تاريخ العرب البائدة

لا يضير الاعتراف هنا بأننا مجموعة صغيرة من الذين ابتلاهم القدر بالتفكير . .

نحن ثلاثة حيناً وأربعة حيناً آخر نلتقي كل أسبوع لنتحدث عن هذا الشيء الذي يجري في وطننا في كثير من الخوف ، والقلق وأحياناً الخزى . .

وتمر بنا أحداث مؤتمر فاس وضم الجولان والتردي الأمني هنا وهناك وهنالك ، كما يمر طعم الصدأ في الأفواه . . ونغمض العين ونضع الأصابع في الآذان لعل هذه الأحداث وغيرها مما يتعذر ذكره تمر صامتة دون أن يرقص عارها الشيطاني على الدروب . .

أحياناً نمزق بقسوة الجلادين صدورنا المسلوخة لتضيع في الزحمة سياط الآخرين . . (الاخرون هم من نعرف وتعرفون) !

ومع أن المسافة لم تبتعد البعد الكافي بين ضم القدس ، وضم الجولان ، لنتبين هل هي النهاية الصغرى في الخط البياني النازل ، ونقطة الانقلاب ؟ أم أنها احدى نقاط الخط النازل . . والمواسم إلى اقبال ؟ مع ذلك فإن أحاديثنا الاسبوعية لم يكن يعجزها أن تتبين مواقع الأقدام اليوم دونما حاجة إلى رمل المنجمين ، وحديث الودع . . ليس صعباً أن نتبين أننا وحتى الأطفال منا واللامبالون في (حالة حصار) . . كل من داخل الأسوار محاصرون حتى الاختناق . . والكل متناقضون ، كالسفينة التي يفترسها بحر الضباب كذلك نحن الثلاثة ، أو الأربعة . . ولكن لا يبدو شراع ، أو دفة ، أو بوصلة تهدي إلى الشروق . .

بعد ضم القدس كان الافق أكثر وضوحاً ومواقع الاقدام . . أما الان وبعد الذي وقع في قمة فاس فان تتابع الانهيارات منذ ذلك اليوم قد أضاع الطريق .

قد تكون مجموعتنا الثلاثية ، أو الرباعية تصور بشكل أو بآخر المجموعات البشرية المسطحة في طول وعرض الوطن العربي . . ولكن من المؤكد أن القلائل من هذه المجموعات ما تزال تملك القدرة على التفكير . . أما الفعل فقد تعطل عند الجميع .

سأجرب أن أنقل على الورق بعض ما توصلت إليه

مجموعتنا ، في محاولة صادقة لاستشفاف معالم الحاضر . . على الاقل .

* * *

لم يبق شيء لدينا ، بعد كل الذي جرى ويجري ، سوى انتظار قرارات مجلس الأمن لمعرفة مدى قدرة الرأي العام الدولي على تفهم حقيقة اقتطاع أرض عربية محتلة بالقوة وضمها إلى كيان مصطنع . . ومهما كان شكل القرار وكسمه ، فان كل ما نستطيع الاستفادة منه هو (نقعها) في ماء مثلج نشرب منه نحن ودول الامم المتحدة كل يوم على الريـق . . وسوى فيليب حبيب الذاهب الآتي كالمكوكَ الفارغ يغزل مع امرأة (اوديسيوس) قميصها التي كانت تنتقص منه في الليل ما تحيك في النهار ، ثم . . لا شيء آخر . . سوى ذلك الطوق التحكمي الذي انما يحكم أسياره ويشد أوتاره في الاعناق رغبة (العملاقين) معاً في أن تكون المناطق الساخنة في العالم تحت أقصى درجات التحكم والتطويق . .

أرأيت رعاة المناطق المرعية يغرسون وينقلون الاوتاد لأبقار الحليب فلا ترعى إلا في مدى الدائرة التي يحددها الحبل في العنق ؟

نتيجة ذلك ، ولنقلها بدون خجل ولا لعب على الالفاظ :

ان المنطقة لم تعد لأهلها . .

المنطقة التي طردت الاستعمار ما بين ١٩٤٥ - ١٩٥١ ، ورفضت البيان الثلاثي عام ١٩٥٠ ، واسقطت مشاريع الاحلاف ، هي نفسها الان التي تقع جريحة تنتظر العطف الدولي ؟

. . المنطقة كلها دخلت مرحلة انعدام الوزن حتى أضحت قبضة عسكرية ارهابية - سياسية تتزعم مليونين ونصف مليون من الاشتات تكفي وحدها لترسم خرائط المنطقة كلها ، ترسم الاقدار لمائة ونصف مائة من ملايين البشر . .

حتى (شارون) اخذ يرسم فيها الخرائط للحدود في الشمال والجنوب والوسط . .

وحتى قبضة من المهووسين اليهود في أمريكا وجدوا الجرأة ليقولوا للرئيس الأميركي ريغان في عقر داره :

ان اسرائيل عما قريب ستشمل ما بين عدن والخليج حتى اقصى شمال العراق .

وهل نخجل بعد هذا ان نقول :

ان المنطقة لم تعد ملتهبة . .

كل الاخطار التي تهدد مصالح الدول الكبرى وتضطرها إلى المراقبة اليقظة كعجائز الزرادشتيين للنار ، كلها زالت - بالاذن من المتفائلين ! !

السلاح الذي يتكدس (يفرقع) يومياً في لبنان وفي غير لبنان لقتل العرب فقط . .

الفدائي الذي ظهر نشازاً وعلى غير انتظار ظهر من تعهد بإيقافه ! !

حرب رمضان عام ١٩٧٣ اضحت ذكرى لايتام (كامب ديفيد) . .

مصر سلخت من الجسد العربي وقد سلخت حياة من سلخها !

النظم العربية تطوف حول نفسها كالقط الذي يريد ان يصطاد ذيله . .

السلاح الهجومي ممنوع على الطرف العربي . .

السلاح التكني يتكدس للقمع ، والتهديد الهجومي اليومي على الطرف الاخر . .

وكل الامور على ما يرام يا سيدتي المركيزة !

الطرفان يائسان من الحرب . . يائسان من السلم ، وإن اختلفت مرة أخرى الاختلاف الكبير منطلقات هذا اليأس الواحد . .

. . تلك هي (التسوية المثالية) في رأي الكرملين والبيت الأبيض . . انها على الاقل تلقي بالمشكلة إلى الجيب الخلفي من اهتمام العالم لتموت مع الزمن ويتوطد فيها الامر

الواقع . . حتى وزير خارجية فرنسا وجد الجرأة الاشتراكية ليهزأ بكل التفكير العربي الرسمي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي . . ثم قام الرئيس ميتران ليكرس هذا الهزء فزار اسرائيل ! !

ان الحواة في جنوب السودان يلعبون حتى بالافاعي الضخمة بعد عملية نزع الانياب !

أفبهذا الحديث تمترون ؟

والان ما هو الدليل المادي على ما أقول ؟

الدليل الحي الذي لا يستطيع أي عربي أن ينكره هو :

رغم الهياج فان الوضع العربي الرسمي لم يتفق بعد على شيء . . لا على حرب شاملة ، ولا سلم شامل ، ولا نصف حرب ولا نصف سلم ، ولا فداء ولا تسوية . .

من الجانب العدو ـ للسخرية المرة ـ وضع لنا ميناحيم بيغن برنامج الغد .

قالوا في أخبارهم ان الاوساط العسكرية الاسرائيلية ترى أن على مصر في عهد حسني مبارك أن (تلزم أدبها) وتهتم باقتصادها المتدهور ، أما الدول العربية الاخرى فعليها أن تنشيء جيوشاً قوية للغاية قادرة على استيعاب العتاد السوفييتي ، وأن تنشيء بناء قوياً عسكرياً وصناعة أسلحة متقدمة ، وأن تُعبيء مواردها لخدمة شعبها فقط ، قبل التفكير بالتكلم عن الحرب مع اسرائيل .

العدو يضع لنا هذا البرنامج ، أما نحن فعلى الارائك متكئون مع شهرزاد والمروحة الرخية . . حسبنا أن معظمنا ينصب قرارت الامم المتحدة في الساحة ، ويقبل حولها يرقص ، وتتعالى الطبول وما ينمقون !

أضحت قرارات الأمم المتحدة هي (الكضية) . .

أما القضية نفسها فقد دفنت في العتمة مع شهداء حرب رمضان ١٩٧٣ .

وبينما يتجمل الخوف بالاصباغ ليصبح ممارسة سياسة وحلول استسلام عند بعض الناس ، ويحتمي الاخرون بالحروب الصغيرة ليرقصوا رقصة الحرب . . ولا حرب ، ولا ما يدفعون !

الشيء الوحيد الذي كسبناه هو السلاح الجديد ، وأولئك الذين صدروه يعرفون أنه سيكون بعد سنوات من الاهمال . . ركاماً من الحديد .

والوضع العربي الفكري (يا أخّ) مجمع على أن (التكننة) كانت المقتل العربي .

التكنولوجيا هي التي مسحت ملامحنا في حرب رمضان . . ولكنه مجمع في الوقت نفسه على أن (تكننة) الفكر العربي تحتاج إلى مدى زمني . . أنا في سباق مثلث :

سباق مع التخلف .. واخر مع الطلائع التكنية المتقدمة ركضاً .. وثالث مع العدو المفترس في أرضنا .. ويجب أن نتجاوزه ولو بمدى أنف ، كما يقول رواد السباق، ببيروت في حلباتهم ، لئلا نخسر الرهان وهو في هذه المرة (يا أخّ) رهان حياة أو موت !

إن الـ ١٥٠ مليون عربي الذين نزهو بهم هم الآن عبء لا قوة ..

انهم ١٥٠ مليون فم يأكل .. يستهلك ، لا ٣٠٠ مليون يد تعمل .

المردود المنتج في هذه الملايين لا يصل إلى العشر ..

وهل أنا بحاجة إلى أن أبرهن على المقولة ؟

وبينما تقرض الجيوش كالمقراض ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٠ بالمائة من الموازنات ، يقرض الجهل بأنواعه ،والمرض، والفتوة الديمغرافية ، وسوء استعمال الثروة ما يتبقى ..

ومع هذا أن الجامعات تدفع إلى السوق بمئات الالوف من الجامعيين ..

فإن نوعاً من القدر الاوديبي الشرس يلقي بهذه الجموع في البحر .. كالخراف نلقيها ، بكل عصا نطردها أو ندمر ..

إنها العشب الشيطاني الذي اذا استشرى أكل قمم الاشجار ، مع الفروع المصفقة دون ثمر ولا كفاية ، يجب أن

تدافع عن نفسها . . أليست لها قوة الدفاع عن المكاسب والمصالح ،

ومن المؤسف بالمقابل أن هذه الطلائع الاختصاصية التي لا توضع في مواضعها ، ولا يحسن الاستفادة منها كثروة بشرية لم تتمتع هي نفسها بعد بالموقف المستقبلي . . شعورها بالغد ضامر حتى الذهول. الركض اليومي وراء الخبز، أو وراء الخبز الأحسن إلهاهاً حتى الآن عن الطموح . . عن حمل الهموم . . عن المعاناة . . وإنما تتفجر النهضات في تلك اللحظات الملهمة الوهاجة من تاريخ الأمم التي تكون فيها مسؤولية المستقبل أكبر وزناً بكثير من الحاح الواقع وإغراء العنادل فيه . . تنفجر حتى تصبح الطلائع استشراقا بأكملها ، وتوقاً عنيفاً . . إلى الغد . .

النبوءات الكبرى ، إنما كانت نبوءات كبرى يوم استطاعت أن تهزّ وتر المستقبل في الجموع الكبرى . . أن تنبه هذا الشعور العميق بمسؤولية اللحظة بالنسبة إلى الآتي . . أن تنقل مركز الثقل في التفكير الانساني من وضع الركود بين القدمين إلى وضع الركض على مسافة نصف متر أمام عينيه .

ثلاثية الوعي الضرورية لمثل هذا الموقف الحركي ـ نحو ـ الآتي ، لم تتضح بعد من رجال الفكر العربي . الجدلية المثلثة بين وعي العصر ، ووعي الذات العربية ، ووعي

الخطر لما تزل في الشكل الهيولي لديهم ، غائمة لما تزل . . سكونية لما تزل . . لا معالم العصر التكني - الذري - الالكتروني واضحة التحدي ، لهم ، ولا إمكانات ونقائض القوى العربية بالمدروسة لديهم ، ولا إبعاد الخطر الزاحف محمولة محمل الجد . . وأما الوضع الشعبي العربي الممتد جموعاً كقطع الليل ، فلا أبأس ، ولا أقسى . .

إن كان ثمة من انسان ذي بعد واحد أو بدون أبعاد أبداً ، فهو هنا الانسان العربي . .

مأساته أنه الضحية التي لا تعرف أنها ضحية !

عقدته الكبرى هي الخوف . . .

انه غذاؤه اليومي . . لا الفصام ولا أي داء من أدواء السيكوباتية المعقدة هي مشكلته !

انها بكل بساطة (الفوبيا) ـ(البان فوبيا) إن شئت !

انه خائف . .

الخوف عنده رفيق العمر منذ عام ١٩٥٠ ، يلتصق به ، يلهب ظهره . .

نحن بكل بساطة ١٥٠ مليون خائف على المال . . على الولد . . على المستقبل . . على الوظيفة . . كلنا خائفون !

وبعد ضم الجولان، كان الفشل الأكبر الذي سجل هو أن ذلك الخوف لم يتحول إلى شعور كارث بالخطر .

ظل خوفاً من توافه الخوف على المصالح الانانية . .
يفترس الجموع ويلصقها بعضها ببعض كالصخر . . لم يصبح من تلك الاخطار المصيرية التي تهزّ الشعوب حتى النخاع الشوكي . .

ظل في حدود الذات الفردية ولم يتسع حتى يشمل الأمة كلها . . لا اجتمع في قناة واحدة ، ولا أخذ حده الأقصى من التوتر الايجابيّ . . ولا اتجه نحو العدو الواضح . .

حتى الآن لم تستطع القيادات السياسية ولا الفكرية أن تكشف خطر العدو في حجمه الحقيقي . .

لم نفهم كيف نجعل الخطر في منزلة فقد الخبز . .

لم ننجح في أن نضع في صدر كل بيت صورة الجمجمة والعظمتين انذاراً بخطر الموت . .

صحيح أن الشعوب تقاد من آذانها ولكن إلى حين . .
قد يطول مجيء هذا الحين . . ولكنه قادم . . قادم . .
والتاريخ برهاني . .

نتيجة كل ذلك كلمتان :

وقفنا بعد أن قرض العدو القدس وقضم الجولان امام أذل الحالات !!

ولم يعد لمنطقة استراتيجية خطيرة تزيد في المساحة

والارض على أوروبا ويسكنها ١٥٠ مليون انسان . . لم يعد لكل أولئك أي وزن دولي . .

والآن :

الخروج من التيه هو المطلب الأول .

وإذا كان الذين خرجوا من التيه في القديم لم يستطيعوا الوصول إلى (أورشليم) إلا على أنقاض اريحا يوم طوقوها ووقفت الشمس ليوشع حتى انهارت أسوار المدينة الحصينة من هزيم الطبول . . فلسنا نحن بالمخيرين .

العدو هو الذي اختار الحرب لا نحن ولا بد من تدمير أريحا للوصول .

ولن تكون المعركة القادمة على الحدود فقط ولكنها ستتناول الأعماق الاستراتيجية ، كل الاعماق وبكل فج .

ولن يكفي فيها النصر . . قبل النصر يجب أن نعرف بدقة :

كم يكلفنا النصر حتى يأتي ثم ماذا نريده بعد ؟

وأهم من كل أولئك أن نعرف أن الحرب قدر هذا الجيل إن لم يكن يريد أن يكتب فصلا جديداً في تاريخ (العرب البائدة) .

ومن المؤسف أن أقول أننا لا نملك للخروج من التيه إلا قبضة أفكار قد لاتكون شيئاً في حساب التنظير والواقع ،

وما نحن من المنظرين . ومن المؤكد أنها لم تصل ولن تصل درجة الاستيفاء ولا مرحلة العمق الأوسع ، ولكن أليس في جانبي الهيكل متسع لفقراء يزرع كل واحد منهم شمعة ؟

لقد كان من غلطاتنا بعض الفهم البدائي للقضية وللحلول . . من آلاء تلك البدائية التي ما تزال :

١ ـ الاصرار على حل القضية كلها مرة واحدة ، وإلا فهي الخيانة والتخاذل . . كان الشعار هو التحرير الكامل أو لا شيء . . كل المراحل بين واقعنا وبين ذلك الهدف كنا نحدقها في لحظات دون أن نفكر مع أمريء القيس :

فبادرها بالحيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال . .

٢ ـ الاصرار بغباء على منازلة العدو في نقاط قوته . . جيشه تكنولوجي التخطيط والسلاح فكان يجب ألا ننازل هذا الجيش . . وقوته الدعائية في الولايات المتحدة هائلة فلا مكان لمكاتب دعايتنا إلّا تنازله هناك . . وكنا ننازله دوماً في الوقت الذي يختار وفي الميدان الذي يختار . . كإنما أعمالنا مستمرة لنصره . .

٣ ـ الاصرار على بناء استراتيجيتنا السياسية على أساس ردود الفعل لا الفعل .

منذ عام ١٩٤٥ حتى اليوم ما تحركت سياستنا العربية حركة إلا كرد فعل على خطوة عدوة . أبداً ما أمسكنا المبادأة

مرة واحدة ، وكان يكفي العدو أن يحسب ـ كما لو على رقعة الشطرنج ـ الافعال وردود الأفعال لنقع نحن في شر الأعمال . .

وهل ضم القدس ، وضرب المفاعل الذري العراقي ، وضم الجولان عنا ببعيد ؟

هذا بعض ما تفكر به مجموعتنا ومعنى هذا أن هناك غيرها يفكر ، ويملك القدرة على القول والكتابة . . وشعار هؤلاء جميعاً :

لابد من قول كلمة الحق مهما كان الثمن . .

نشرت في جريدة صدى لبنان

٢٣/ ١/ ١٩٨٢

ماذا لو وقعت الحرب فجأة ؟

كل المآسي التي نعيشها انطلقت من هزيمة ١٩٦٧

نحن نحيا إلى الأمام بينما نفكر إلى الوراء !

لو وقعت المعركة أين الثورة الفلسطينية ؟

رغم الحروب الأربعة ما تزال كلمة عربي
أربعة أحرف فارغة من المحتوى !

إذا قامت الحرب فجأة
فسيكون الانسان العربي غريباً عنها

بدل « الأسلحة الفاسدة »
عام ١٩٤٨ هناك «الأدمغة الفاسدة
و « القوى الفاسدة » عام ١٩٨٢

قال لي صديقي وهو يحاورني :

أما تزال تصر على أن يكون حديثنا عن فلسطين كلما اجتمعنا ؟ ألم يتحقق لديك بعد بأننا قد أهرقنا أنهارا من الحبر على أطنان من الورق ، هنا ، وفي كل بلد عربي ومع ذلك لم نقل حتى الآن شيئاً مذكورا مما يجب أن يقال . . ألم تقنع بعد بأننا أفرغنا الحمولة حديثا وتصريحا وكتابة ونشرا وإذاعة حتى باتت النفوس تعاف القول والقوالين ، والحديث والمتحدثين ؟

فأجاب الثاني نيابة عني :

إن صاحبنا ما يزال يؤمن بأننا نحن أمة حفلت أيامها بالأحداث والمآسي ، ولا بد للتراب أن ينتفض ، وللزمن أن يتم فعله ، ومن لم يذكر مواضع الالم والوجع فاته الكثير من أسباب الصحة والعافية . .

قال الثالث الذي ساقته وظيفته إلى الاطلاع على كتب الدعاية الصهيونية المنشورة بأقلام الصهيونيين وأنصار الصهيونيين في أوربة والاميركيتين :

ماذا لديك لتقول وقد سبق أن وافقتني أكثر من مرة على أننا لا نعرف كيف نخاطب أنفسنا ولا سوانا عندما نتحدث عن فلسطين . . فنفوسنا لم نملأها بسوى الهواء ، وعقول سوانا لم نبعث لها سوى رشاش من الحماسة والزبد المتخثر على الأشداق ، فلم ننشر في الناس سوى الهباء ، ولم نرسل

فيهم سوى الفقاقيع . . وإن ما نزعم أنه كلام ودفاع، لم يكن سوى صراخ أجش ، واختلاج مريض ، وهذيان مرسل على سجيته البدائية هي بضع رصاصات من القول الطائش أطلقناها في الفضاء بفيض حماسي قبل دخولنا المعارك ، وعندما غدونا في خضمها ، كانت بنادقنا فارغة وحماستنا منطفئة !

قال الرابع وهو يحاول أن يخفي يأسه بجهد ظاهر ، ويغالب حزنه بإشارات عصبية من يديه ليدلل على استعداده للسماع :

أنتم تتحدثون كثيرا عن الماضي ، وأنا الآن أريد أن أسألكم عن الحاضر وأبعاده . . ألا تسمعون كيف أن العدو يخطط للقيام بعدوان جديد على العرب منطلقا من جنوب لبنان هذه المرة ؟

قلت :

سيان عندي إن وافقتموني على ضرورة الاستمرار في الحديث عن فلسطين ، أو رفضتم . . فالأمر عندي ، وعند أمثالي من جيل النكسة والنكبة والهزيمة أن تستمر المأساة كالسوط لا يهدأ في أيدي النخاسين حتى يزول السوط والنخّاس . . أتراها باقية ؟

. . وتمطت من الجاهلية الأولى صورة أبي قابوس المنذر

ويوم بؤسه لتتصل بيوم وعد بلفور . . ويوم التقسيم . . ويوم الاسكندرونة . . ويوم ١٥ أيار ١٩٤٨ . . ويوم دير ياسين . . وقبية . . وكفر قاسم . . ويوم (الخامس) من حزيران ١٩٧٦ . . ويوم ذهاب أنور السادات إلى القدس . . ويوم كامب ديفيد . . ويوم قيام الشريط الحدودي في جنوب لبنان . . و . . . و . . . أيام بعد أيام تحولت بعبقرية شيطان عجيب من محرضات تلامس نخوة المعتصم إلى أيام بؤس مكرورة تنتشلها دورة الأرض حول الشمس ، من مستقرها . . مرة بعد مرة ، ثم تعود فترميها في غيابة المحفوظات !!

الذين انغرست هذه الأيام في دمائهم كاللعنة الأبدية ، سكينا جائعة وراء الشغاف والأعصاب يخشون على هذا الجرح أن يهدأ . . رحم الله الموتى يوم (ماالجرح بميت ايلام) . . إن اليوم الذي وضع العرب وجها لوجه ولأول مرة أمام المعضلة الشكسبيرية المصيرية : أن نكون أو لا نكون ، يجب أن لا يعتاده الناس . . يجب أن لا يصبح المصير معه مصير ذلك الرجل التعس الطالع الذي عرف المنجم سوء حظه في كفه فرفض أن يكشف له خبايا قدره . . فلما ألحّ وألحف قال له :

عندك عشر سنوات من التعاسة والشقاء والمهانة والمتربة . .

وقال الرجل في لهفة :

وبعد ذلك ؟

قال المنجم : تكون قد اعتدت .

هذا الاعتياد بالذات هو ما ينتظره العدو على الجانب الآخر من الجبهة لأنه يعرف أنه صورة أخرى من العجز والكساح أمام القدر (الاوديبي) المحتوم . !

(كما اعتادو سنة ١٩٤٨ سوف يعتادون سنة ١٩٦٧ ، وسنة ١٩٧٥ في لبنان ، وسنة ١٩٨٢ على قبولنا سادة في وسطهم) بذلك يصرح وزير حرب العدو « شارون » . . وبهذا الأمل ينتظر وينتظروون ، ويلعب ويلعبون جميع الأوراق معا . .

ولئلا نعتاد ، يجب أن تظل أنظارنا محملقة في أعماق الجرح . . في موضوعية وصرامة وقسوة . . وهل تجدي المرارة أو ينفع اغماض العيون ؟

لا بد أن نعرف كلما أطلت ذكريات تلك الأيام السوداء كما ابتعد عام ١٩٤٨ عن عام ١٩٨٢ . . . تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل !

وأنا كمقهور يهمني أن أقيس على مراحل الطريق كم ابتعدنا نحن عن الصلح الذي صنعه السادات وبيغن وكارتر . . عن مناخه والعوامل التي أدت إليه . . هل

ابتعدنا ؟ ونحن الأربعة لن نضع أنفسنا في سدة القضاء . . وأين نحن من ذلك الموقف لننصب الميزان ونضع الاحكام بالعدل والقسطاس وحكمة الحكماء . . . لكننا نحن مجموعة بشرية صغيرة من هذه الجماهير التي تتنفس هذا القدر وتعيشه . . نصوغ أحيانا بعض الاسئلة فوانيس على الطريق . . أنها قد تكون الميزان ، وقد تعين على عمق الرؤ ية وتحديد الاتهام أو الأمل . . ومن يدري ؟ لعلها من خلال الجواب الذاتي عليها ـ لعلها ـ أن تكون بداية الطريق والآن سأعود إلى سؤ ال صديقي الذي يسأل عن الحاضر وأبعاده . . وعن المعركة الجديدة التي يهددنا بها العدو . .

الافتراض المؤلم الذي انطلق منه هو أنه : لو وقعت المعركة اليوم فهل . . . ؟

وتنحدر بعد (هل) هذه ، عشرات الأسئلة . . وهل يضير أن نفكر معا ، في بعضها بصوت عال ؟

مثلا : لو وقعت الواقعة فهل اتخذت العدة ليكون العنصر البشري العربي موجودا فيها . . موجودا ضمنها في زحمة الميدان لا على الهامش ولا في مقاعد النظارة من صراع الثيران ؟ هناك حقيقة واحدة لا يمكن لأحد أن ينكرها أن الشعب العربي انقلب دوره إلى متفرج . . وهنا يكون دوره أحد اثنين :

آما أنه فقد حس المعركة . .

وأما أنه قـد أريد له أن يعزل عن المعركة ويلهي بحلبات الصراع النيرونية :

وحوش تفترس رجالا ، ورجال يـدقون أعنـاق وحوش . .

همجية تدغدغ غرائز القتال وتغني عن المشاركة بالفرجة . .

هكذا تحول واقعنا . .

جمهور من المتفرجين ، هياجات غرائزه على حلبات الفرسان الرجال ، أو الفرسان الضحايا ثم يذهب إلى فراشه لينام مستريحا .

قبل أن ندخل في صميم الجواب على (هل) لا بد من التوقف لالتقاط الانفاس .

في حروبنا الماضية مع العدو لم يحاربنا العدو بالسلاح فقط . . لقد ضربنا الاجنبي كوحدة وضربتنا الصهيونية (بشعب اسرائيل) كوحدة ، ولم يبق علينا إلا أن نهون صغارا ، حتى نتعلم من خليط دين الشتات اليهودي ، كيف يصير إلى (شعب) وينصهر في وحدة (دولة) وأين ؟ في أرضنا . . وكيف ؟ فوق أشلائنا بعد تمزيق وحدتنا ؟ فهل نشعر الآن بهول هذا الواقع ؟

لقد لطمنا الأجنبي بقبضة واحدة ، ولطمتنا اسرائيل بقبضة واحدة . . وهززنا نحن قبضة سياسية في الهواء ، بدون أصابع . .

أصابع قبضتنا فوق التراب تحت أقدامنا وتحت كل الأقدام ، مقطوعة دامية ، كل أصبع قلعة ، وكل أصبع راية ، وكل أصبع يذلها أن تعود إلى قبضة الكف الواحدة ، ولا يذلها أن تصبح (الدياسبورا) اليهودية دولة واحدة ، فوق أرض (الأصابع المقطوعة) وفوق سيادات (حزمة الاشلاء) . . أليس من أجل هذا ، وقبل أن تنفجر البديهيات ، طرد المثقف الوطني من بلاده ؟ والآن سأعود للاجابة على سؤال صديقي (هل) :

إن كل العقول والاقلام تتحدث عن الحرب القادمة وكأنها واقعت لا محالة . . وكل من يدعي الاطلاع عن الاسرار وما تخفي الصدور يؤكد أن الحرب الجديدة تشبه إلى حد بعيد حرب ١٩٦٧ أي حرب تتبعها هزيمة . . فكيف خضنا حرب الهزيمة الحزيرانية ؟

وفي سنة ١٩٦٧ كان في المعركة فقط ٢٢٠ ألف انسان من مائة مليون عربي ونيف ، أي أقل من ربع بالمائة من مجموع العرب يومها . . حتى الدول المحيطة بالبقعة الموبؤة وهي تعد خمسي الأمة العربية لم تجند للمعركة سوى (٠٤ ، ٠) بالمائة من إمكانها البشري ، وما من أمة تحارب اليوم بأقل من ١٠

بالمائة ، وإنما حاربنا اليهود ـ عدا عن كل التكنولوجيا الأمريكية التي وراءهم ـ بـ ١٧ بالمائة من اعدادهم .

وهكذا حارب العرب (رسميا) ولكنهم لم يكونوا موجودين بالفعل في المعركة . . ولم تأخذ كلمة عربي ، لا في المعركة ولا قبلها ، ولا بعدها معناها السياسي النضالي الكامل . . بقيت أربعة أحرف فارغة من المحتوى ، وبدلا من أن تأخذ أبعادها الشاملة منذ ذلك اليوم الأسود ، فتحتوي الاقليمية الضيقة إذا بهذه الاقليمية تحتويها وتستخدمها . .

برز المصري ، والاردني ، والجزائري ، والسوري ، والعراقي . . وعادت اللعبة القديمة ضمن الحدود القديمة أيضا وفي إطارات التجزئة التي أوجدها الأجنبي ، فإذا بنا نتمسك بها نحن ونعطيها باسم (الواقعية) كامل فلسفتها وقوامها المادي . . فهل نسي الناس يا ترى أن عار سنة ١٩٦٧ لم يلبس السوري أو الاردني أو المصري أو العراقي ، ولكنه لبس العرب . . كافة العرب . . وكل المآسي التي تطوقنا اليوم وتسحقنا إنما هي وليدة تلك الحرب اللعينة . .

فنحن الذين صنعنا أكبر وحدات التاريخ ، ووثقناها بأقدس رباط ، وكنا معلمي التوحيد والوحدة عندما كانت الامبراطوريات تسحق الشعوب ، والرعايا لا يعرفون

هـويـاتهم . . أصبحنـا نفلسفـ التجـزئـة ونضـع لهـا الايديولوجيات والبرامج المزوقة .

إن ادخال العنصر البشري في المعركة : اعدادا وتنظيما وفعالية ، وليس (صف عسكر) في خط مستقيم ، ولا تعداد غنم مما يعدّون . . أنه تحويل الشعب كافة من مجتمع سلام إلى مجتمع حرب ، وفرض نظام أولويات لمقتضيات الدفاع ، ولمجالات الخصومة (الاقليمية أو الطبقية أو الدولية) ، وأهم من هذا وذاك تجنيد الكفايات بدلا من سحقها في مناخ الارهاب الفكري والاقتصادي أو تركها تهرب كالعصافير المذعورة . . بعيدا . . بعيدا لتصب في الأقنية الغربية .

ولو وقعت المعركة فهل وضعت كافة القوى في اتجاه واحد معها لخدمتها ؟

الثروات الطبيعية الضخمة التي نعرف . . ممرات التجارة والاتصال العالمي . . الأموال التي تختنق بها المصارف الأجنبية . . الامكانات الانتاجية . . خبرات هذه الجموع العربية كالكنوز . . كلها قوى حبيسة كما لو حبست مارد الجان في قمقم ، متضاربة الخطوط والاتجاه حتى لتزيغ البصائر في تقصي ذلك التضارب . . وإن بعضها ، أو معظمها ليستخدم ضدنا في المعارك ونحن لا ندري .

تراك لو أعطيت طفلا ألف سبيكة من الذهب فهل

كانت تصلح عنده لأكثر من اللهو فيها بقدمه ؟ إن أبشع ما يميز البلاد النامية وما يسحقها هو أنها لا تعرف ولا تحسن الاستفادة من قواها ومن امكانها المهدور .

لقد ثبت لكل ذي عقل أن القوى الكبرى إنما تلهو بالمنطقة وتتحداها وتستغلها لأنها لا تجد فيها خطين يلتقيان في طريق . . لو أحسّت هذه القوى مرّة واحدة فقط أن باستطاعة عشرة بالمائة من ملايينا العربية التي أضحت ١٥٠ مليون أن تهدد مصالحها التهديد الجدي الواعي ، لكانت تعد إلى الألف قبل أن تقف هذا الموقف البشع في مجلس الأمن عند بحث موضوع ضم الجولان إلى الاغتصاب . .

أمريكا التي يصب عليها من البترول العربي بمختلف سبل الاستثمار تسعة عشر ألف مليون دولار في السنة ومن استثماراتها في شمال أفريقيا العربي مثل ذلك ومن الاسواق العربية ضعفا هذا الرقم ما كانت لتجازف بإقامة استراتيجية عسكرية مع اسرائيل لو كان للعرب أي وجود فاعل ! ثم لووقعت المعركة يا صديقي . . فهل انتهى احتكار بعض الأنظمة وبعض الناس لها ؟

عندما جاءت المعارك بعد عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ كانت الأنظمة وحدها هناك . . أما الانسان العربي فكان غريبا عنها غربة كاملة لأنه كان مبعدا عنها الابعاد الكامل . .

بدل الأسلحة الفاسدة سنة ١٩٤٨ كان هناك (الأدمغة الفاسدة) و (القوى الفاسدة) . . أما الشعوب فلم تكن بحاجة إلى تلك الدماء البريئة التي أريقت وتراق في لبنان، وفي غير لبنان لتعرف ما بينها وبين الأنظمة من انقطاع وغربة . . . كانت قد انقطعت عنها منذ زمن طويل . . ثم هل تخلت الأنظمة عن دورها المسرحي الاحتكاري ؟

وهذا التحالف بينها على الصمت والتساند ما أعماقه . . وما مداه ؟

أليس من الغريب أن جميع من بحثوا كارثة لبنان إنما تطوعوا لبحثها في دراسات وأبحاث متناثرة ، وأنه ما من مسؤول عربي على الاطلاق جمع شخصين فعهد إليهما ببحث هذه الكارثة وأسبابها وطرق تفادي مثلها أو أشد منها نكرا قد تقع في بلده . . يظهر أن أزلامهم ليس لديهم الوقت لتبليغهم ـ أو لعلهم لا يعلمون ولا يهمهم أن يعلموا ـ أن العدو جمع خبراءه والعلماء في لجان ومؤسسات لدراسة تلك القضية التي أضيفت إلى اختها قضية فلسطين . . وإنّ ما كتب عن الكارثة اللبنانية حتى الآن بالفرنسية والانكليزية والاسبانية والالمانية وبالعبرية يزيد حتى مطالع عام ١٩٨٢ على ألف وثمانمائه كتاب .

ولو وقعت المعركة يا صديقي ـ وهي اليوم تكنولوجية في الدرجة الأولى ـ فهل انتهى التخلف التكنولوجي ؟ لعلي

أستعير هنا كلمة قالها مرة الفيلسوف (كير كغارد) ـ وأن تكن الاستعارة لغير المعنى الفلسفي الذي يقصد ـ فنحن (نحيا إلى الأمام بينما ندرك ونفكر إلى الوراء)

إن قدرنا قد وضعنا شئنا أم أبينا ، في معركة وسائلها هي القمة في التطور التكنولوجي القتالي بينما السواد الكبير منا ما يزال وراء هذا المستوى . . في عهد السيف والترس . . ومع أني لا أعتبر ردم الهوة التكنولوجية والعلمية والحضارية الردم الكامل من شروط النصر إلا أننا غارقون إلى الأذقان في العصر . . مصطدمون على الرغم منا الاصطدام الظالم بأرقى تكنولوجياته الذرية والالكترونية . . ولا فكاك من المواجهة المتطورة . .

هنود أمريكا الحمر ، أو سكان أوستراليا الأولون إنما بادوا لأنهم أصروا على مواجهة عصر البارود بالسهام . . بيزنطية سقطت لأنها أصرت على الانشغال باللاهوت والجدل عن مدافع السلطان محمد الفاتح . . . ونحن مرغمون على اختيار التطور السريع مع الحاجة الملحة أو الفناء .

كانوا في الملاعب الرومانية يتفننون في تسليح العبيد بأوهى الآلات ، ويضحكون ملء الأفواه وهم يرون كيف يتصرفون أمام الوحوش الجائعة . . ولا مفر حتى تنزف الشرايين آخر الدماء . . وليس ورثة الحضارة الرومانية

المعاصرون بأقل وحشية من أولئك الأجداد السابقين وإنما في القديم كانوا يذبحون أفرادا وهم الآن يذبحون شعوبا وأمما .

إن ثمة حدا أدنى من المعرفة التكنولوجية ـ العلمية ـ لا بد منها ،فهل بلغنا هذا الحد الأدنى ؟

هل نحن في الطريق إلى بلوغه ؟

إن للعمل الوطني علمية أيضا ، وللثورة علميتها الصارمة التي تفترض أقصى الاستفادة من كافة القدرات والامكانات بأقصى ما يمكن من السرعة والدقة والموضوعية . . وحين أفكر في هذا أحس أحيانا أننا متأخرون دوما عن الفترة التي نعيشها عشر سنوات تارة وخمسمائة تارة أخرى .! ولو وقعت المعركة أيضا وأيضا ، فهل وضعت نظرية الثورة التي تواجهها ؟

الذين يحلو لهم أن يتمطقوا بلينين يأتون به من أنفه كلما بحث هذا الموضوع فينصبونه على الأسطر ليكرر كلماته : (لا ثورة بدون نظرية ثورية) . . ومع أنهم يأتون بعده بماوتسي تونغ ليقول :

(من ينقل النظريات فإنه كالذي يبري قدمه ليلائم الحذاء . .) أو كما قال : فإنهم مع ذلك يبرون أدمغتهم والأقدام لملاءمة الحذاء الغريب .

وتتدفق المطابع نتيجة لذلك بفيض من الحديث عن

الطبقية والاستراتيجية واليسار وما وراء الجدلية وما تحت هيغل وما قال غيفارا وعمل (كيم ايل سونغ) . . ولست ضد هذا أبدا ولكني أشعر بوضوح أنه أدخلنا في السديمية الايديولوجية . . بل أشعر أكثر من هذا أن المنظومة اللفظية التي نستعمل قد أضحت تمارس كل الدور السحري الذي كانت تمارسه في الطقوس البدائية الأولى ، تعاويذ السحرة . . مع الرقص والبخور والارهاب الفكري والجسدي أيضا . . . أبدا لم تتحول أي نظرية ثورية لدينا من وصف المجتمع إلى تغيير المجتمع . . كانت استبدالا في الشعارات مع استمرار الأوضاع ، كالذي يحول الماء من إناء مكعب إلى اسطوانة مستديرة أو زجاجة سوداء إلى بلور أحمر . !

أبدا لم تستطع أي حركة لدينا أن ترتفع عن مستوى الطفولة الثورية ، ومنهج التجربة والخطأ والبدء مع تجارب الأمم من ألف باء تلك التجارب ومن الأدب الثوري الذي أفرزه القرن التاسع عشر قبل لينين بكثير . . ولا أريد أن أضيف إلى ذلك : الغرور والجهل وتزييف التحليل والتجارب . . فالحديث يا صديقي ذو شجون . !

ولسنا نريد أن ننتصر لنظرية معينة . . أي نظرية تحول العربي من الفكر إلى العمل نقبلها نحن الأصدقاء الأربعة مطلعا للسير . . أي خطة تحرك الوجود العربي من مرحلة

العطالة المزمنة إلى دنيا الفعل . . مرحبا بها . . ولكن هاتوا فقط من ينظر ومن يؤمن ومن يعمل لما يؤمن . . هاتوا من يحول (بنزين) الكلام إلى حركة دائرية تحرك العجلة على الطريق !

وأخيرا . . لو وقعت المعركة فأين الثورة الفلسطينية ؟

في كتاب (لا ماركس ولا يسوع) الذي أصدره الكاتب الفرنسي (ريفيل) يقول الرجل :

(إن القانون الرهيب القاسي بالنسبة للبلاد المتخلفة هو أن ثوراتها هي بدورها أيضا متخلفة) لقد يكون هذا صحيحا أو لا يكون . . ولكن قابيل وهابيل ما يزالان يعيشان في أهابنا إلى اليوم . . وأخطاء الثورة لم تكن أبدا السبب في تشتيتها . . خناجر الليل والقنابل كانت لها دوافع أخرى . . هل تذكرون ما الذي فعله آدم وحواء يوم وقعا في الخطيئة ؟

. . . بدت لهما سؤاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . .

يوم بدت السؤات في حزيران الأسود كانت الثورة الفدائية ورقة التوت للأنظمة العربية ، فلما وجدت هذه الأنظمة الستر وثيابا أخر . . كان على ورقة التوت أن تزال . . وحده التوت ظل يطلع ورقة ورقة على مقاسه . .

ولن أمضي يا صديقي مع الأسئلة ، فانها كثيرة ، وقد

كنت احسبها قليلة . . ثم أني قصدتها أسئلة فحسب فإذا بها تحول إلى محكمة إدانة . . محكمة ؟ بلى . !

إننا نحن الأربعة ندعو أصحاب الفكر العربي من كل جيل وميل إلى أن يصوغوا الأسئلة وإلى أن يعقدوا هذه المحكمة كشهود لعصرهم وفاعلين فيه ومسؤولين عنه . . ولقد نعرف نحن أيضا أن تجاوز الهزيمة ليس عمل سنة أو سنتين ، ولكن سفرة ألف ميل إنما تبدأ بخطوة . . ونعرف أيضا أن هذه الصرخة قد تكون صرخة في واد . ولكن احد روادنا الأوائل ، عبد الرحمن الكواكبي أضاف إلى هذه الكلمة تتمة مؤلمة . . فقد تكون صرخة في واد ولكنها إن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالاوتاد . . والأولاد !!

نشرت في « صدى لبنان »
٢٥ / ١ / ١٩٨٢ .

بآلة الحرب ، والدعم الأميركي
وصلت اسرائيل إلى الوضع المُريح

الخلاف الوحيد بين تل أبيب وواشنطن
هوَ أيهما قوّة لاسرائيل :
أهو التوسع الأرضي أم التسويات ؟

أبا ايبان :
نحن ذراع أمريكا في أفريقيا

بيغن :
أمريكا لا تعطينا السلاح لسواد عيوننا . .
فنحن نقوم بالحرب بالنيابة عنها !



ذكرت قبلاً أننا مجموعة صغيرة من الذين ابتلاهم القدر بالتفكير . .

وذكرت أيضاً أننا نلتقي كل أسبوع لنتحدث عن هذا الشيء الذي يجري في وطننا وباسمنا . كان الحديث عن تصورنا للواقع العربي المخزي ، أما حديثنا الآن فهو مخصص لتناول الموقف على جانب العدو بعد اقدام الولايات المتحدة على استعمال حق الفيتو ضد قرار مجلس الأمن بفرض العقوبات (الاختيارية) ضد اسرائيل لضمها الجولان إليها متحدية العالم ، وكل ما يمثله هذه العالم من مؤسسات وقيم .

دون حساب القوى الصهيونية التي تسوق المهاجرين على كل الحبال . ودون الاشارة إلى أن خطر الآلة العلمية الاسرائيلية التي هي الخطر المرعب عل المدى البعيد ، فإن عناصر الموقف الاسرائيلي تنكشف في أمور ثلاثة :

ـ آلة الحرب . .

ـ الدعم الأميركي . .

ـ الوصول إلى الوضع المريح . .

آلة الحرب الاسرائيلية اليوم صارت مقدسة : كل ما يمس الطائرات ، الدبابات ، الدروع ، الأجهزة الالكترونية ، صفقات السلاح من الخارج فهو مقدس .

كذلك قال (بنحاس سابير) في إذاعة له من برنامج الجيش منذ فترة تعليقاً على قيام الطائرات الاسرائيلية بالتحليق فوق الأراضي السعودية والعراقية والأردنية والسورية .

موازنة الجيش التي لم تكن قبل (الخامس من حزيران ١٩٧٦) تصل إلى ١١ بالمائة من النتاج القومي أصبحت اليوم تستأثر بـ ٤٦ بالمائة منه .

إن هذه النسبة في الولايات المتحدة لا تتجاوز ٨ بالمائة ، وفي انكلترا ٦ بالمائة ، وفي فرنسا ٥ بالمائة ، وفي ألمانيا الغربية ٤ بالمائة ، وفي اليابان ١ بالمائة فقط .

* * *

هل تعني هذه الأرقام شيئاً ؟

البروفسور برونو استاذ الاقتصاد في الجامعة العبرية كتب في أواخر السنة الماضية :

(خلال السنوات العشر ما بين ١٩٥٦ - ١٩٦٧ أنفقنا على الأمن مليارين ونصف المليار من الدولارات الأميريكية ، ومنذ حزيران ١٩٦٧ حتى نهاية ١٩٦٩ أنفقنا ما يوازي ذلك المبلغ نفسه ، ثم خلال السنتين التاليتين ١٩٧٠ - ١٩٧١ و ١٩٧١ - ١٩٧٢ أنفقنا ما يوازي ذلك المبلغ نفسه وبعدها أضحى ما ننفقه كل سنة حتى ١٩٨١ ما يصل سنوياً إلى ٣ مليارات ونصفا ، أي بزيادة ٣٤ بالمائة عما كنا أنفقناه في عشر سنوات سبقت حزيران .

ميزانية الحرب الاسرائيلية بلغت من الأرقام المعلنة للسنتين الأخيرتين أكثر من نصف ميزانية الدولة ٥٥ بالمائة من كل ليرة اسرائيلية (الشيقل) تدفع بالنقد الاجنبي .

هل يعني ذلك شيئاً لأحد ممن سيضعون (الاستراتيجية العربية الموحدة) لمواجهة اسرائيل من جنوب لبنان ؟

(شارون) لا يخفي المعنى ، لقد قال امام ضباط المدرعات منذ فترة ، وفي خطاب علني بثته الاذاعة الاسرائيلية بالعبرية أن هناك هدفاً للحرب المقبلة ، انها سوف

تمنحنا خريطة جديدة وعلاقات جديدة مع العرب ومكانة جديدة في المنظمة الدولية وفي العالم . .

وكشف هو نفسه أثر ضم الجولان إلى اسرائيل أن ٨٢ بالمائة من موازنة الحرب الاسرائيلية مخصصة للطيران والمدرعات .

أفلا يعني ذلك شيئاً لأحد أيضاً ؟

شمعون بيريز زعيم المعارضة القادم إلى الحكم هو الذي يعطي المعنى هذه المرة بقوله لمراسل جريدة النيويورك تايمس :

إذا بدأت حرب أخرى فإن المفاوضات التي سوف تليها سوف تركز على الوضع عام ١٩٨١ وليس على خطوط حرب ١٩٧٣ .

ولعلنا أخيراً نضيف رقمين أخرين يكشفان بعض الأبعاد .

الاول يتعلق بالعجز في ميزان المدفوعات الذي ارتفع من ٥٢٠ مليون دولار سنة ١٩٦٦ فبلغ في عام ١٩٨١ مبلغ ١٨٨٢ مليون دولار ، ومن المتوقع أن يزيد في هذه السنة ١٩٨٢ على أكثر من ألفي مليون دولار أخرى ، وهم يتوقعون أن يسددوا نصف العجز من القروض ، وهذا ما سوف يرفع الدين الخارجي على اسرائيل إلى خمسة الاف

مليون دولار. أي أن كل يهودي هناك مدين بمبلغ الفين وخمسمائة دولار خارجياً ، فمن يسدد هذه الأرقام الضخمة .

والرقم الأخير يتعلق بالضرائب المرهقة .

إن اسرائيل تحتل المكان الأول بين دول العالم في نسبة الضرائب إلى الناتج القومي . . قبل حرب رمضان ١٩٧٣ كانت تحتل المكان الخامس عشر . . هذا ما قاله (موشيه فويد رفر) المسؤول عن واردات الدولة ، قفزت بعد الحرب إلى المكان الرابع ثم قفزت في السنة الماضية إلى المكان الأول (تقرير صندوق النقد الدولي) . نسبة الضرائب إلى الناتج القومي تبلغ الآن لديها (٤٦ ، ٦) بالمائة مقابل ٢٧ بالمائة قبل حزيران ١٩٦٧ .

الدعم الاميركي

. وأما الدعم الأميركي فقد لخصه (شوايتزر) المعلق الاسرائيلي في جريدة هارتس بقوله :

(على الاسرائيلي القلق أن يثق بأن كافة الخطوات الاميركية بالنسبة إلينا في عهد إدارة الرئيس ريغان ، ترتكز على أساس أن اسرائيل مصلحة وطنية للولايات المتحدة الاميركية . . ما من خلاف على ضرورة تسليح اسرائيل حتى الاسنان . . على تقويتها حتى تصبح وحدها أقوى من كل القوى العربية مجتمعة وزيادة . .

الخلاف الوحيد بين الطرفين لخصه ميناحيم بيغن وهو يرد على معارضيه في الكنيست أثر ما قيل عن خلاف في وجهات النظر بينه وبين ريغان حول الحكم الذاتي :

الخلاف الوحيد بين اسرائل وأميركا هـو حول السؤال :

ـ أيهما أكثر قوة لاسرائيل ؟ أهو التوسع الارضي أم التسويات ؟ هل هي الميزات الاستراتيجية التي فرضت علينا ضم الجولان والقائمة على أساس جغرافي (نظرية اسرائيل) أم الميزات الأخرى القائمة على الأفضليات والسبق التقني والاقتصادي والسياسي والثقافي (النظرية الامريكية) .

إذن فقد استطاعت الدبلوماسية والعلاقات الاحتكارية معاً أن تصلا في توحيد الخط السياسي بين اسرائيل والولايات المتحدة إلى الدرجة التي لم يبق فيها على تل أبيب إلا أن ترفع العلم الاميركي ، وعلى البيت الأبيض إلاّ أن يضع بين نجوم العلم النجمة السداسية .

اسرائيل استطاعت أن توفر لأميركا أمرين :

الاول ـ هو العصا العسكرية الغليظة التي تدمر القوى العربية العسكرية في العمق، فتضمن بذلك الطمأنينة للاستثمارات الأميركية في المناطق العربيـة ، وتتكدس الأسلحة في اسرائيل لا ضد العرب ، ولكن لمواجهة احتمال أي مواجهة ساخنة مع المعسكر الشرقي .

وأخيرا ، وبعد انفصام مصر عن الجسم العربي ، فتحت اسرائيل الباب الخلفي لأميركا في أفريقيا وآسيا .

أبا ايبان وزير الخارجية المرشح ليخلف اسحق شامير هو الذي أكد للجنرال هيغ وزير الخارجية الاميركية على مأدبة الغذاء :

(نحن ذراع أميركا في أفريقيا) .

أما ميناحيم بيغن فقد قال لهيغ أثناء زيارته الأخيرة لاسرائيل :

(السلاح الاميركي لا يعطي لنا لسواد عيوننا ولكن للمصالح المشتركة ، أنه لتوفير حياة الاميركيين في مواجهة الاضطرابات في الخليج وما بعد الخليج) .

ومجلة الجيش الاسرائيلي (باحمنة) هي التي قالت وهي ترد على وزير الدفاع الاميركي يوم أعلن توقيف شحن الاسلحة مؤقتا لاسرائيل احتجاجاً على ضرب المفاعل الذري العراقي :

(إن على جيش الدفاع الاسرائيلي مهمات لخدمة الأصدقاء) .

الثاني ـ هو الاستثمارات الاقتصادية . لقد بلغ من قوتها أن عينت اسرائيل مديراً عاماً لهذه الاستثمارات بعد زيارة السادات للقدس .. أن ثلاثين من أصل أكبر خمسين

مؤسسة اقتصادية كبرى في أميركا تعمل في اسرائيل ، بالاضافة إلى أن أحد أبواب التصريف لصناعة الحرب الاميركية هو تل أبيب . .

لهذا تتدفق الطائرات أسرابا بلا حساب على اسرائيل ، وتركض أحدث صرخات تكنولوجية الحرب الاميركية إليها . . وتمنحها أميركا عشرات المليارات ، ولهذا أيضاً أقرت أميركا التعاون الاستراتيجي العسكري مع اسرائيل . .

ولهذا أيضا وأيضاً كان يكفي تقديم بعض الطلبات والتواقيع لتمنح اسرائيل من مجلس الشيوخ الاميركي استثناء من قانون ايقاف المساعدات الخارجية وتعطى مبلغ مليار دولار .

إن الولايات المتحدة تدفع نفقات المهاجرين من روسيا لاسرائيل الآن ، وهي التي ضغطت على مستشار النمسا كرايسكي لكي يواصل تساهله لايصال المهاجرين القادمين من الدول الاشتراكية إلى اسرائيل .

وأخيراً زال الكابوس !
اليومي عن اسرائيل !

من يستطيع منا أن ينكر أن اسرائيل وصلت الآن إلى الوضع المريح .

أفاعي البوا الضخمة في الغابة تبتلع فريستها كتلة واحدة ثم تنام على الاسترخاء لهضم الفريسة المتكررة في حلقها شيئاً فشيئاً . .

الوضع المريح وصلت اسرائيل إليه سياسياً وعسكرياً منذ وصول الرئيس السادات إلى القدس ليعانق ميناحيم بيغن وقبيله . .

كل تلك الضجة التي رافقت توقيع (اتفاقيات كامب ديفيد)، وكل تلك الضجة التي رافقت ضرب المفاعل الذري العراقي ، وضم الجولان والقرارات الدولية بالاستنكار ، ثم الادانة العالمية لضرب الأمنين في لبنان والسطو على جنوب لبنان ، ثم التوتر الدولي الذي عانته اسرائيل من جراء صلفها وغرورها وتحديها للعالم . . كل ذلك أخذ ينحسر . فلم يعد هناك من يسمع على أي جبهة طلقة ، اللهم جبهة لبنان المستضعفة التي وصفت للذبح . .

زال الكابوس اليومي الذي كان يمسك أنفاس الاسرائيليين يوم كان الجيش المصري يقف إلى جانب الجيوش العربية مع كل نشرة أخبار يسمعون دمهم ينزف ، ورقاص المعنويات يصعد ويهبط مع كل قطرة . .

قبل أيام ، وبينما العالم ما يزال مشدوهاً من جراء اقدام أميركا على استخدام حق الفيتو ضد القرار الاردني بشأن ضم

الجولان عبر عاموس أيلونة عن ذلك في مقال بجريدة هارتس حين قال : (الحدود هادئة الآن . . الجيش المصري أصبح خارج الساحة العربية ، ونأمل أن يستمر وقف القتال إلى الأبد . . وليطمئن العالم ، لا حرب ولا انسحاب ولا تسوية سلمية كنا نخشى منها . . التسوية الوحيدة المقبولة هي تسوية كامب ديفيد . . ولا دلائل لعودة الوفاق بين واشنطن وموسكو ، والرئيس الاميركي ريغان يملأ مخازننا بالاسلحة . .

نتيجة كل ذلك هنالك أمران :

١ - استراتيجية اسرائيلية جديدة قائمة على تجميد الأوضاع والتعايش مع المشكلة . .

اقصى ما تطلبه اسرائيل في المرحلة الحالية هو أن تبقى الاسلحة خرساء . وكل هذا يجري تحت أنف الناس وسمعهم والعيون مفتوحة ولكنها لا تبطر والاسماع تلتقط الأخبار ولكن من لها بالوعي مما يعون . أما الغرض فهو؟

تهويد الأرض المحتلة ، خلف ما يسميه بيغن « (بالحقائق) » الجديدة فيها .

لم تحتل اسرائيل أرضاً فقط ويجب أن ندرك ذلك . . أخذت مع الارض (المرافق العامة) عليها وأرصدة البنوك وموارد طبيعية وسياحية ضخمة وآثاراً ، وفرص عمل . .

بجانب ٢٠ ألف قتيل وفقيد وأسير ، لم تضاعف

مساحتها أربع مرات فقط ، ولكن يجب أن نضيف إلى الحساب أملاك الدولة واملاك الأفراد التي صادرتها . . ثروات النازحين والمقيمين التي دخلت في دخلها القومي ، وما على الأرض المحتلة من المرافق العامة التي تستخدمها وما فيها من مصادر الاستثمار .

وإذا نجحت اسرائيل في فرض الأمر الواقع سنة ١٩٤٨ وأخذت من أموال العرب في فلسطين تلك السنة ما قدره الخبراء حتى سنة ١٩٦٢ بمبلغ ٢٣٠٠ مليون جنيه استرليني ، فلماذا لا تفكر بالعملية ذاتها اليوم إذا كان المال مباحاً ، وكان الرقم الجديد في الجولان أضعافاً مضاعفة .

الثانية تهويد الفلسطينيين . .

بلى ! ولا أعني الدخول في اليهودية فذلك (امتياز) لم تستطع حتى ابنة بن غوريون أن تناله لأن أمها في الأصل مسيحية (بالاذن من سعد حداد) ، ولكن ادخال عرب الارض المحتلة والجولان في إطار الاقتصادي الاسرائيلي . . ابتلاعهم في الآلة العاملة . . استخدام وجودهم لانهاء القضية الفلسطينية من جهة ، ولتوفير اليد العاملة الشاقة من جهة أخرى .

إن ٧٠ ألف عربي يعملون الآن في الاعمال الاسرائيلية مكان ٧٠ ألف جندي في القتال .

وقد وضعت الخطط كي يتضاعف الانتاج الاقتصادي للضفة الغربية ثلاث مرات . مؤسسة (رائد) الاميركية وضعت لاسرائيل الخطة كي يزداد انتاج الضفة والقطاع والجولان إلى حد أدناه ثلاث مليارات (شيقل) . . أنها خطة الاستيعاب ، أو الأضواء الواسعة .

إن اسرائيل تدرك أن تهويد الأرض غير ممكن إن لم يتهود من عليها أيضاً . .

فهل من مذكر ؟

نشرت في « صدى لبنان »

٣٠/ ١/ ١٩٨٢

اسرائيل « العظمى » قامت ! . . .

بدأوا بكلمة وطَن قومي . . .

ثم تحدثوا عن الأراضي المحَرّرة . . .

ثم أعلنوا قيام اسرائيل الكبرى !

شرحت فيما سبق قصة تجمعنا للتحدث في شؤون الوطن .

كـان حديثنـا في الاسبوع المـاضي يتناول تلك التصريحات الغريبة المريبة التي نشرت وتداولتها القيادات العربية العسكرية والسياسية عن المفاوضات المحتملة بين الفلسطينيين واليهود . فتح أحدنا الحقيبة الجلدية واستل منها جريدة (لوموند) الفرنسية ، تاريخ ٢٠ كانون الثاني١٩٨٢ وراح يقرأ نص حوار مع الدكتور عصام السرطاوي جاء فيه أنه قام (بمساع من أجل إجراء حوار اسرائيلي ـ فلسطيني على أسس أكثر صلابة واتساعاً) .

وأصرت جريدة لوموند على أن تصنف المتحدث (الدكتور سرطاوي) بأنه مستشار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

بعد ذلك سحب الثاني من جيبه قصاصة جريدة أجنبية

(الغارديان) البريطانية وقرأ تصريحاً آخر للسيد الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم قال فيه بالحرف :

(. . أحب أن أرى منظمة التحرير الفلسطينية تنضم إلى الحكومات العربية في مبادرة سلام ، والعرب بعدم قيامهم بذلك إنما يضرون بقضيتهم ، واسرائيل دويلة عظمى يجب أن يعترف بوجودها) .

وهكذا كنا في الماضي نسمع عن دولة (اسرائيل الكبرى) وها هوذا رئيس بلدية بيت لحم يبشرنا بدولة إسرائيل العظمى . . فما هي القصة يا جماعة ؟

وانطلق الحديث في متاهات وشعاب وبوادي وقفار عن هذا الموضوع ، وسأحاول هنا أن آتيكم منه بنبأ !

* * *

من إسرائيل الكبرى إلى العظمى !

ميناحيم بيغن هو صاحب تلك العبارة التي أضحت شعاراً لكل يهودي :

(لن يكون سلام للعرب ما لم نحدد وطننا كله) .

ذلك هو واقع السنوات العشرين التي سبقت الخامس من حزيران الحزين ١٩٦٧ .

الكنيست جميعه وقف بصورة عفوية ينشد لأول مرة

سنة ١٩٥٦ نشيد (هاتكفا) حين أعلن بن غوريون الهجوم على سيناء ، لم يستطع السيطرة على ما يكن من التوسع العدواني ، وسمي العجوز احتلال سيناء بعد ذلك (رجوعاً إلى الحدود التاريخية) تماماً كما سمي ميناحيم بيغن ضم الجولان بالعودة إلى الحدود التاريخية . .

أما بعد حزيران الحزين . . فلم تعد سلطات واحزاب اسرائيل بحاجة إلى القفز فوق ظلها التوسعي أو مضطرة إلى تغشية الأطماع فلا تبين . .

اسرائيل ـ ويجب أن نذكر هذا ـ مرحلة انتهت ، ونحن الآن وبعد ضم القدس والجولان والاستعداد لضم الضفة الغربية والقطاع ، نشهد مرحلة جديدة للعدو هي (اسرائيل الكبرى) . . أو (اسرائيل العظمى) كما بشرنا باسمها الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم !

اسرائيل الكبرى . . أهو مجرد اصطلاح ؟
كلا !

في أيلول سنة ١٩٦٧ ظهرت حركة (اسرائيل الكبرى) ببيان وقعه ٥٤ كاتباً ، وعالماً وشاعراً في اسرائيل نشر في جريدة (هاآرتس) منهم :

(عجون حامل جائزة نوبل ، والشاعر ناتان أكزمان ،

والعالم يوسف أهاروني ، والجنرال ابراهيم جاني ، ورئيس المخابرات الاسبق (تسير هاريل) .

فما لبث أشكول أن التقط بدوره الكلمة وتحدث في تشرين الاول بعد شهر فقط عن اسرائيل الكبرى ، وعن سعي اسرائيل لترسيخ قدمها على حدودها الجديدة . . الموجة الشعبية ، المزيج من الغرور بالنصر العسكري ومن الأطماع الاقتصادية ، ومن الهوس الديني ، والديماغوجية الانتخابية والتي تبلورت بشكل (لجنة العمل) لاتمام الهوس القومي التي أرادوا استغلالها أخذت بسرعة تجرفهم . . إلى مواقع جديدة . . خندقت الآن في واقع الفتح وسياسة اللاتراجع وحلم الارض الموعودة غداً . .

إن سياسة الحكم الذاتي ليست في الواقع أكثر من ملهاة موقتة فاشلة . . الذين رسموا خطوطها الكبرى في (كامب ديفيد) يعرفون ذلك . . ليس من وزير واحد في حكومة ميناحيم بيغن ، ليس من وزير يقول بارجاع المناطق العربية المحتلة . . قصارى خلافهم كما كشفته مجلة (تايم) منذ مدة . . إنهم بين فريقين :

فريق يرفض حتى إرجاع سيناء على الاطلاق . .

وفريق يقبل إرجاع سيناء ليعطل الجبهة مع مصر ويرمي بالجيش كله في مواجهة الجبهة الشرقية .

الأراضي المغتصبة تطورت النظرة إليها أربع مرات في أشهر قليلة .

كانت في حزيران الحزين ١٩٦٧ المناطق التي تم الاستيلاء عليها .. ثم صارت في آب المناطق المحتلة ، وأصبحت في أيلول المناطق (المحررة) ، ثم صارت في تشرينْ رسمياً اسرائيل الكبرى . مجلة (نيوزويك) هي التي سجلت هذا التطور في آخر سنة ١٩٦٧ ، وليس جابوتنسكي الاب الروحي لبيغن هو الذي يسرح الآن في الشوارع والمستعمرات والحكومة .

إن سايد يوثام عاد الآن يدرس بما قدمه لمشاريعه من ملاحظات عسكرية واستراتيجية ، وما درسه من متطلبات الأمن والصمود الأقتصادي .. و (تريتش) صاحب فلسطين الكبرى طبع من جديد أبحاث نحميادي ليمي عن المقومات الاقتصادية لاسرائيل المقدسة .. وعلى المصلين في الكنيس تتلى بصوت جهوري الآن تفاسير الحاخام (ايزاكس) لسفر العدد ، حول (الحدود الحقة للارض المقدسة) والتي تمتد حتى الاسكندرونة وحوض الفرات .

والشباب ينشدون مع (هاتكفا) نشيد (شمال هاياردن) ونشيد الحارس على الاردن على طريقه النشيد الالماني (الحارس على الرين) ..

الموقف الجديد يسقونه الآن للناس في اسرائيل ، وتنتظم الاحزاب حوله في جوقة واحدة ، وبينما يصرخ يوسف بورج أن حدود سنة ١٩٤٩ كانت خطوات هدنة أملتها الاعتبارات العسكرية وليست حدوداً ، واسرائيل ترتكب غلطة تاريخية كبرى إن تراجعت عما احتلته ، يصرخ ميناحيم بيغن في وجه (هيغ) بأن النظر إلى واقع سنة ١٩٦٧ وإلى خريطة ١٩٧٣ يجب أن يتم على أن الحدود السابقة وضعت ، واسرائيل ضعيفة ، وقد وجد ذلك الوضع حدوداً غير معقولة . . ويعلن حاخام اسرائيل الأكبر في بوقه باسم الحزب الديني القومي :

(أرض اسرائيل ميراث مقدس لا تملك أي سلطة دنيوية أو دينية التنازل عنه) .

ويقول ميناحيم بيغن باسم حيروت موجهاً كلامه إلى الرئيس الاميركي ريغان :

(لن نرتكب جريمة التراجع عن الوطن المحرر ونتطلع إلى تحرير الباقي) .

ويعلن أبا ايبان باسم الماباي :

(لن نتخلى عن الأراضي المحتلة ، ولن نسمح بقيام دولية للفلسطينيين ولو صوتت الأمم المتحدة بكامل أعضائها ضدنا) .

لقد أجمعوا في الكنيست بأنه يجب ضرب البلاد العربية، سورية الأردن السعودية العراق لبنان بحيث يدفع عشرات العرب ثمن كل ضحية اسرائيلية تسقط . . وتسارع الولايات المتحدة الاميركية إلى اقرار الاستراتيجية العسكرية بينها وبين اسرائيل .

إن هذا المدّ سوف يتصاعد باستمرار . . وستسمعون إلى مطالع الربيع القادم ، على الأقل ، حتى التهديد والوعيد ، وقد تسمعون تحويل قرى الشريط الحدوي في جنوب لبنان إلى مناطق محررة . . وقد تسمعون صوت المدافع على حدود الاردن وسورية . . ولن يغامر (المعراخ) بأي خطوة للوراء حتى ولا من أجل إرضاء أميركا . .

أريد أن أقول أن زيارة هيغ فاشلة ، وزيارة الرئيس مبارك فاشلة ...

قد يكون ، إنما أتحدث عن الاطماع . وبينما تتهيأ التغطيات والصيغ البديلة التي تمحو عن التوسع الصهيوني شكله العدواني وتعطيه الشرعية تتهيأ بالمقابل نظرية الغد وخريطة الغد :

بلى ! فلكل موقف صهيوني تبتكر النظرية والمباديء العلمية التي تبرره وتمشي بالمباخر أمامه ، وتوضع المخططات في تغطية التوسع الحالي ، وإضفاء (الشرعية) عليه وتثار

الدوامة اللفظية العجيبة حول صفة الحدود المطلوبة من العرب :

امنة .. حيوية .. تاريخية ..

شعرت اسرائيل أن من الصعب التعمية على واقع الاحتلال ، ومن الصعب أيضا الاصرار على حدود تاريخية لم تكن أبداً في يوم من الأيام أكثر من وعد ميتولوجي .. ولذلك عادت إلى الباب المفتوح دوماً ، باب الحدود ..

ولقد بدأوا بكلمة (وطن قومي) فوصلوا إلى خطوط التقسيم سنة ١٩٤٧ ، ثم إلى حدود الهدنة سنة ١٩٤٨ ، ثم أضافوا لأرضهم المناطق المجردة من السلاح على الحدود السورية ، والاردنية والمصرية ثم أضافوا مكاسب المرور بالعقبة سنة ١٩٥٦ ، وفي سنة ١٩٦٧ وصلوا إلى خطوط جديدة وقفت عندها النار .. وفي عام ١٩٨١ وصلوا إلى عمق مصر .

وحجة المماطلة الآن بعد ضم القدس والجولان تدور في (الحدود الآمنة) وما حدود الأمن ؟

وأين تبدأ الشرعية وأين تنتهي ؟ والحدود التاريخية والمقدسة وما كان لها يوماً من وجود .. بل يتحدثون من أجل الغد أيضاً عن الحدود الحيوية ، ويتحدث يوسف بورغ عن مياه الليطاني التي تذهب هدراً .. وعن الجولان الذي

سيستغل بعد ضمه . .

ألم أقل أنه الباب المفتوح هذا الباب ؟

أما من أجل الغد ، فإذا كانت لا تكفي نظرية التاريخ العتيق . . والحق المقدس حجة ، فقد نزلت إلى السوق نظرية أخرى ترفدها . . ونزل معها على الطرف الآخر خارطة اسرائيل المقدسة . أما النظرية فنشرها بنيامين أكسين ، استاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية ، قال :

(إن العالم اليوم يتوزع ثرواته بين بني الانسان . . نحن في عهد المساواة والتعاون العالمي ، ومن العدل أن نأخذ حصتنا ، والعرب يحاربوننا منذ ثلاثين سنة لقطعة أرض هي أرض أجدادنا ولا تزيد عن بضع عشرات من ألاف الكيلومترات ، بينما لديهم ضعف حاجاتهم من الأرض والثروات . . أليس هذا منتهى الظلم ؟)

وأما الخريطة فقد نشرت في كراس مجاني ، وزع في الولايات المتحدة أثناء الحملة الانتخابية للرئيس ريغن ، فيه خارطة اسرائيل سنة ١٩٤٧ باسم اسرائيل الأمس ، وخارطتها بعد حزيران الحزين باسم اسرائيل اليوم ، وفيه مصور الحاخام إيزاكس اياه باسم اسرائيل الغد ، ويبررون ذلك بالارادة الالهية .

إن الآلة العسكرية حاضرة . . وجهاز التنمية العالمي

حاضر . . وهذه هي النظرية وخريطة العمل

هل ثمة من يشك في أن الحركة المقبلة ستقطع من جبنة الأرض العربية ما تشاء ؟

ألم يجعل عمي الزعماء من هذه الأرض المقدسة عاهرة الطريق . . ؟

أو لم يتركـوها لمصير المال (الداشر) . .

لننتظر سنة . . ثلاثا . . خمسا فمن يدري لعل القادة العرب يجدون الفرصة لوضع ما سمي بالاستراتيجية العربية الموحدة لانقاذ جنوب لبنان على الأقل !

نشرت في جريدة « صدى لبنان »

٩/ ٢/ ١٩٨٢

مِن آثار المؤلف المطبوعَة

الشيوعية بقلم قادتها في الشرق صدر عام ١٩٦٠
عشرة من الناس «الجزء الأول» صدر عام ١٩٧٥
عشرة من الناس «الجزء الثاني» صدر عام ١٩٧٩
شاهد على المذبحة صدر عام ١٩٧٦
ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني الطبعة الثالثة صدر عام ١٩٧٨
نهاية شاعر «بيْرم التونسي» صدر عام ١٩٨١
لبنان .. قضية ورجال صدر عام ١٩٨٢

مِن آثار المؤلف، التي تحتَ الطبع

وحدة الانفصال .
عشرة من الناس «الجزء الثالث»

السعر : ٥ ل.ل. أو ما يعادلها